كبريائه بين الناس، لتمدّ لنفسها في المفاخرة والمباهاة، وتكون لها وحدها الكبرياء من دون الناس. ولم يكن عسيراً على قريش تنفيذ هذه السياسة في تلكم المضامير. فأهل مكّة أمرهم عليها هيّن، وقيادهم سهل كالمطايا الذلول، لأنّهم له تبع وأشياع، تورد فيوردون، وتصدر فيصدرون، بل هم لها سهام القسيّ، ونصال الرماح. والضاربون حول البلدة المقدّسة، في الحضر والبوادي، ما لها من حاجة لانتجاعهم حيث يقيمون لإثارتهم وتأليبهم، لأنّهم لا يكفّون عن ارتياد مقامها لزيارة البيت المعمور في المواسم، أو لقاءً على البيع والشراء. أمّا الفئة المسلمة فهم المضمار الأوعر[624] وإن كان لا مناص لها من اقتحامه، لإنّه الأولى بالصيال فيه. ولقد حانت الساعة الآن. فليس وقتٌ أنسب من هذا الوقت للنفوذ إلى محمد من خلالهم، وإطفاء نور مهابته في قلوبهم، بضربة بالهانة والتصفير، إذ أصابه ما أصابه بعد أن رحلت عنه زوجه: شادّةُ أزره في البأساء والضراء، وعمّه: حاميه الذي لم يكن له في الحمى نظير. فضياع المهابة هبوط، والهبوط مهوىً وتدهور. وعندما تنزلق القدم على شفرة حفرة، فلا ممسك لها من التدهور سوى القاع! وإذا المرء هان على مناصريه ومريديه، فهو إذاً أهون على مناوئيه ومبغضيه. ولقد رأى أعداء محمد، بعد فجيعته في عزيزَيْه، وشماتة قريش به، أنّه في حالة معنوية رثيثة، كثَوْب نهشه البلى، وغالته الخروق إلاّ القليل، فهو كاسف البال حتّى الجمود، بيّن الحزن حتّى الجزع، موصول الألم حتّى الانهيار. كذلك خالوه!